**النهج الجدلي المادي عند كارل ماركس : ( 1818م - 1883م)**

**انطلق كارل ماركس كغيره من زعماء الفلسفة الغربية الحديثة في بناء منهجه المادي الجدلي من نقده لفلسفة عصره ، وبالتحديد فلسفة "هيجل" (1770/1831م) المثالية ، هذه الأخيرة التي كانت تقوم على ثنائية الذات والموضوع وانتماء كل واحد منهما إلى الآخر ،" إن كل ما هو واقعي عقلاني وكل م اهو عقلاني واقعي " كما يقول هيجل ، وذلك انطلاقا من أن كل الظواهر مُدركة من طرف الذات ، فتكون بذلك الذات المدركة جزء من الموضوع المدرك والعكس صحيح ، ولا شك أن هذا التصور الهيجلي يرجع إلى فكرة أن العالم الحسي يفهم بالعقل ، وهو مجرد ظاهرة فقط أو مظهر خارجي للفكرة وثمرة لها ، وتصبح بذلك الذات (الفكرة) هي مبدأ الحقيقة.**

**من هذه النقطة بالتحديد ومن غيرها التي سنتكلم عنها في نشأة المادية الجدلية لاحقا ، كانت بداية كارل ماركس ، إذ حاول أن يرجع الأسبقية والأهمية للعالم الخارجي على العقل ، باعتبار أن الأول هو منبع وأصل المعرفة ، فكان طريقه في ذلك وضع المنهج الجدلي المادي وتفصيل ذلك فيما يلي :**

**المنهج المادي الجدلي :**

**الجدل أو الديالكتيك هو في الأصل مصطلح يوناني يعني " فن الحوار أو النقاش "، و بشير إلى طريقة في الحوار تعتمد على الحجاج والمناظرة لغرض إثبات فكرة أو تبرير موقف ما**

**إن الجدل قديم في تاريخ الفلسفة عرف تطورات وخصائص كثيرة ، بداية من الجدل الفلسفي مع زينون الايلي إلى جدل أفلاطون ، والجدل كمنهج عند علماء الكلام ، ولا تخلو أي فلسفة عبر كل مراحلها التاريخية من الجدل سواء كمنهج علمي ، أو كأسلوب في الحوار.**

**بلغ الجدل أوجه مع الفلسفة المثالية الألمانية مع هيجل الذي أصبح منهجا فلسفيا متكاملا، وصولا إلى الجدل المادي مع كارل ماركس ، وهو موضوع بحثنا ، فما هو الجدل ، وما هي الجدلية المادية ؟ ولماذا هي مادية ؟.**

**نشأة المادية الجدلية :**

**قبل الإجابة على الأسئلة السابقة أود أن أشير إلى لمحة تاريخية موجزة عن نشأة المادية الجدلية التي كانت على يد كبار الفلاسفة الذين نظروا لها وعلى رأسهم كارل ماركس ، وفريديرك انجلز (1820/1895) ، ثم تبعهم في ذلك فلاديمير لينين (1870/1924) ،وكان ذلك في أواخر القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر في ألمانيا ، تزامن ذلك مع الحركات الشعبوية التحررية والنضال من أجل الانعتاق من العبودية ، كذلك عرفت هذه الفترة تطورا ملحوظا في العلوم خاصة في الكمياء والفزياء ، إذ عرف هذا العصر أكبر الاكتشافات العلمية في مجال الطاقة والخلية وكذلك نظرية تشارلز داروين (1809/1882) حول أصل وتطور الأنواع .**

**لقد كان لهذه الاكتشافات العلمية دور في كبير في إعادة النظر إلى الطبيعة وتجاوز التصورات الميتافيزيقية ، و اعتبارا من ذلك أصبحت الطبيعة في حالة حركة وتحول دائمة ، وهذا بدوره يصدق على المجتمع فهو في حالة من التحول والتبدل كذلك ، والظاهرة عموما أيا كانت طبيعتها تتصف بتلك الخاصية ؛ أي التبدل والتحول . من هنا ظهرت الحاجة إلى تغيير التصور الميتافيزيقي عن الطبيعة والوجود إلى تصور جديد أكثر واقعية .**

**هذا وقد كانت الفلسفة السابقة على كارل ماركس وانجلز بمثابة الأرضية الخصبة التي انطلقا منها ، ونحن نتكلم هنا عن هيجل وفلسفته المثالية التي كانت تتضمن فكرة الجدل ، وعن فلسفة لودفيغ فيورباخ (1804/1872م) ، الذي انقلب على المثالية وأعطى تصورا ماديا للطبيعة .**

**من هنا كانت بداية المادية الجدلية التي هم أصحابها إلى نقد الفلسفة والعلم الإنساني وفق متطلبات عصرهم الثورية والنضالية والداعية إلى الانعتاق ، فخرجت الفلسفة الماركسية إلى النور ومنها المادية الجدلية التي كانت بمثابة انطلاقة جديدة في العلم والفلسفة .**

**تعريف الجدل :**

**"المقصود بالجدل هو منهج فلسفي يدرس الواقع في صيرورته الدائمة في حركته "**[[1]](#footnote-2) **، والجدل الماركسي هو:"علم أعم قوانين تطور الطبيعة والمجتمع والفكر الإنساني "**[[2]](#footnote-3)**.**

**نفهم مما سبق أن هذا الجدل الذي يضعه كارل ماركس يتوجه نحو المادة في تحولاتها وحركتها باعتبارها مبدأ ومنها يمكن أن نصل إلى المعرفة التامة بالأشياء ، فالمادة سابقة على الوعي .**

**المادية :تعني " نظرة للعالم ، أي طريقة في فهم ظواهر الطبيعة وتأملها اعتمادا على مبادئ محدودة ، وكذلك فيما يتعلق بالظواهر الاجتماعية ، تصبح هذه "النظرة للعالم" في جميع الظروف ،فهي أساس عدد من العلوم ، وهي بهذا تكون تفسيرا عاما للعالم يجعل الأعمال العالمية أساسا متينا ولهذا فهي تكون نظرية "**[[3]](#footnote-4)**.**

**أما المادية الجدلية فهي : "التي ترى أن الصورة لا يمكن أن توجد بدون محتوى معين، كما أن المحتوى لا يمكن أن يوجد بدون صورة معينة ، ولا يعني القول بأن المحتوى لا يمكن أن يوجد بدون الصورة أن الصورة هي التي تعينه وتحدده ، بل هو الذي يعينها ويحددها ، يعني ذلك أن الصورة ليست سابقة في الوجود ولا هي أزلية بل تتغير حسب التغيرات التي تطرأ على المحتوى . يتغير المحتوى أولا تتغير ظروف البيئية المحيطة به ، ثم تتغير الصورة حسب تغيرات المحتوى ونمو التناقضات الداخلية في المحتوى ، نتج عن ذلك أن الصورة بدلا من أن تسبق النمو في الوجود تعكسه لنا فتتأخر بذلك عن الوجود عن المحتوى ، يسبق المحتوى الصورة خلال النمو ، وتتأخر الصورة عن المحتوى .ولا يمكن وجود المحتوى بدون الصورة ، ومع ذلك فإن ؛ الصورة لا تتفق تماما مع المحتوى لتأخرها عنه ولهذا يظهر المحتوى الجديد لاتخاذ الصورة القديمة مؤقتا فينشأ عن ذلك النزاع والصراع بينهما "** [[4]](#footnote-5).

**إن المادية الجدلية انطلقت من البحث في الظواهر الطبيعية على أساس أنها مادية ، وهي جدلية لأن جميع تلك الظواهر تتطور وتتحقق عبر قوى داخلية متعارضة ، عكس الجدلية المثالية تماما التي تعطي الأسبقية للوعي على المادة .**

**إن الجدل الماركسي جدل مادي يعطي الأولوية للعالم المادي على العقل ، بحيث تكون حركة الفكر نتاج حركة الواقع التي تٌتَرجم في عقل الإنسان على شكل أفكار وتصورات ، فهي بمعنى أوضح تنطلق من الواقع العلمي للظاهرة أي من المادة التي تخضع لقوانين ومبادئ معينة قائمة على العلم وتطور المجتمع ، ومنه يمكن أن نجمل خصائص النزعة المادية الجدلية في ثلاث عناصر أساسية :" 1/العالم مادي بطبيعته .2/المادة هي المعطى الأول والوعي هو المعطى ثانوي مشتق منها .3/ يمكن معرفة العالم وقوانينه معرفة تامة "** [[5]](#footnote-6) **.**

**إن المادية الجدلية تقوم بدراسة التفاعلات والتبادلات القائمة في المادة ، وذلك وفق قوانين الديالكتيك التي تساعد الباحث على معرفة العلاقات القائمة بين الظواهر وتطورها ومعرفة أجزائها ، وهذه القوانين هي " المتحكمة في حركة المادة وفي ارتقاء الطبيعة والحياة الاجتماعية والوعي الإنساني . وهذه القوانين هي الأشمل والأعم ، أي أن الأشياء كافة والظاهرات قاطبة تنصاع لها انصياعا مطلقا وهي تسمى قوانين الجدل "**[[6]](#footnote-7) **.**

**إن هذه القوانين مترابطة فيما بينها ومرتبة بشكل متسلسل فهي تمثل وحدة متناسقة رغم تعددها ، وعلى الباحث أن يلتزم بها في محاولات فهمه للواقع ، وهي على الترتيب التالي :**

**1/قانون التحول في الكيف والكم .2/قانون وحدة صراع الأضداد .3/ قانون نفي النفي .وتفصيل مضمون قوانين الديالكتيك فيما يلي :**

**قوانين الجدل المادي الماركسي :**

**أ / قانون التحول في الكيف والكم :**

**يرصد هذا القانون التغيرات التي تحدث عل مستوى الكم والكيف ، فالظاهرة الطبيعية تعرف تغيرات كثيرة من حيث التطور فتظهر عليها الزيادة والنقصان مثلا ، وذلك ناتج عن تفاعل وتصارع بين عناصرها . عندما تصل هذه الظاهرة إلى مستوى نهاية التغير الكمي ، يظهر عليها تغيرا كيفيا بالضرورة ، وهذا التحول هو بمثابة "قفزة " أو "طفرة ".**

**وعليه يكون هذا التحول النوعي الذي يحدد صفات وخصائص الظاهرة ناتجا عن التّغير الكمي لها ، والذي يحدث بشكل متواصل إلى حين مرحلة النهاية والاستكمال .**

**إن هذا القانون يبين طبيعة التطور الموجودة في الظاهرة ، وبه نعرف كيفية النشوء وكيفية النمو والتحول . ويمكن أن نلخص هذا القانون فيما يلي :"إن التغيرات الكمية الطفيفة غير المحسوسة في البدء تؤدي بتراكمها التدريجي ، وفي لحظة معينة إلى تغيرات نوعية جذرية ، تختفي على إثرها النوعية القديمة ، وتظهر نوعية جديدة تفضي بدورها إلى تغيرات كمية جديدة "** [[7]](#footnote-8)**.**

**ب / قانون وحدة صراع الأضداد :**

**يقوم هذا القانون على جدلية الصراع بين الأضداد فيما بينها ، وهو صراع ملازم لاستمرار النوع البشري ، أو الظاهرة عموما أيا كانت طبيعتها ، فكل شيء يحمل في ذاته نقيضه ، بداية ونهاية /حياة موت ...، وفي هذا التناقض تكون وحدة الشيء التي هي في صراع داخلي مستمر ومتواصل .**

**إن الصراع هو سبب حدوث التغيرات الكمية التي تكلمنا عنها في القانون السابق ، ومنها تحدث التغيرات الكيفية من حيث الصفات والخصائص .**

**يفضي هذا القانون إلى أن الوحدة هي شرط أساسي للصراع القائم بين الأضداد ، وإن كانت تحمل في داخلها تناقضات فهي في ذلك تتحقق ، فهذا القانون يكشف عن مصدر الصراع في الظواهر المتمثل في الأضداد القائمة فيها ، والتي رغم تناقضها تشكل وحدة ، ومن ثمة تكُون الوحدة ضرورية هي الأخرى وأساسية في استمرار الظاهرة وتطورها .**

**مما سبق نخلص إل أن الجدل الماركسي هو صراع يتجه نحو الأعلى ، وبه تصبح الظاهرة أكثر تميزا وتعقيدا مما كانت عليه ، ومنه " يكمن جوهر قانون وحدة الأضداد وصراعها ، في كون التناقضات الداخلية ملازمة لكل شيء ولكل سيرورة ، وهذه التناقضات هي في حالة وحدة ، وفي الوقت نفسه في حالة صراع دائم "**[[8]](#footnote-9) **.**

**ج / قانون نفي النفي :**

**يقوم هذا القانون على مبدأ تطوّر الظّاهرة عند بلوغها الدّرجة الأخيرة من التّحوّل والتّغيّر : " القفزة " ، فتظهر حالة جديدة تنفي سابقتها ، أو بالأحرى تختلف عن الظّاهرة في بداية الأمر .**

**إنّ هذا النّفي لا يعني انعدام الظّاهرة بل هو تطوّر لها ، يكون أكثر كمالا وأكثر نضجا مع بقاء الجوانب الإيجابيّة الأولى وهكذا يحدث التّطوّر وهو خروج من حالة إلى نقيض لها ، وهكذا .**

**يكمن جوهر قانون نفي النّفي فيما يلي : " خلال سيرورة التّطوّر تُنْفى كلّ درجة عليا وتزيح الدّرجة السّابقة ، لكنّها ترفعها في الوقت نفسه إلى مستوى جديد وتصون كلّ المضمون الإيجابيّ المكتسب أثناء تطوّرها "** [[9]](#footnote-10) **.**

**إنّ هذا القانون يؤسّس لمبدأ التّطوّر الّذي لا يمكن أن يحصل حصولا إيجابيّا إلّا عن طريق تجاوز العناصر السّلبيّة في الظّاهرة والإبقاء على ما هو إيجابيّ فقط ، ومن ثمّة السّموّ بالظّاهرة نحو نقيض جديد أكثر فاعليّة ، كالتّحوّل مثلا من نظام الدّولة القديمة إلى نظام الدّولة الحديثة .**

**خلاصة : تتمثّل أهمّية منهج كارل ماركس في توجيه الفكر نحو الواقع ، وهو توجّه نحو فلسفة مادّيّة جديدة تقضي على كلّ أنواع الفكر المثاليّ النّظريّ وعلى الأفكار الميتافيزيقيّة ، إنّها فلسفة مادّيّة تجعل من الواقع موضوعا لها ، وهي جدليّة من حيث أنّها تتّجه نحو التّناقضات والتّحوّلات والصّراع القائم في داخل الظاهرة لمحاولة فهمها وإقامة معرفة جديدة حولها .**

**من هنا يظهر البعد الفلسفيّ الّذي أراده كارل ماركس للخروج من التّصوّرات الميتافيزيقيّة ، فلا يمكن أن نحمل ما هو مشاهد محسوس ماديّ إلى جعله متعاليا على مستوى الذّات والوعي .**

**إنّ المادّة مع المنهج الجدليّ متحرّكة بحركة جدليّة داخليّة ، وفي هذا ردّ على التّصوّر الّذي يعتقد أنّ المادّة ساكنة ، ذلك أنّ : " المادّيّة القديمة ميتافيزيقيّة كانت ترى إلى الطّبيعة على أنّها ساكنة ثابتة ، من ذلك على سبيل المثال أنّهم كانوا في القرنين السّابع عشر والثّامن عشر يعتبرون أنّ الشّمس والكواكب وأفلاكها لا تتعرّض بأيّ تغيّر ، وكان التّصوّر عينه عن الطّبيعة قد رسخ في الأذهان "**[[10]](#footnote-11) **.**

**إنّ الجدل الماديّ هو جدل علميّ لأنّه : " اتّحد عضويّا بالمّادّة ، وهذا الاتّحاد بين الجدل والمادّيّة يتحقّق في الفلسفة الماركسيّة في المادّيّة الجدليّة "**[[11]](#footnote-12) **.**

**" لقد استطاعت النّزعة المادّيّة الجدلّيّة أن تفسّر الظّواهر تفسيرا مرضيا فدلّت على أنّ هذه الظّواهر ، إنّما هي صورة لحركة المادّة ، وأنّ المادّة لا تستطيع فقط إحداث الحركة بل تستطيع أيضا إحداث تغيّرات نوعيّة ، وأنّها تملك ديناميكيّة داخليّة نشيطة وقدرة على الخلق ، تعتمد على وجود التّناقض داخل الأشياء ذاتها " [[12]](#footnote-13).**

1. - فاسيلي بودوستنيك وأوفشي ياخوت ، ألف باء المادية الجدلية ،ص12. [↑](#footnote-ref-2)
2. - المرجع نفسه ، ص46 . [↑](#footnote-ref-3)
3. - جورج بوليتزر وجي بيس، موريس كافين. أصول الفلسفة الماركسية، الجزء الأول تعريب شعبان بركات ،المكتبة العصرية، بيروت ،ص138. [↑](#footnote-ref-4)
4. - جورج بوليتزر وجي بيس، موريس كافين. أصول الفلسفة الماركسية ، ص160. [↑](#footnote-ref-5)
5. - جورج بوليتزر وجي بيس، موريس كافين. أصول الفلسفة الماركسية ، 147. [↑](#footnote-ref-6)
6. - فاسيلي بودوستنيك وأوفشي ياخوت ، ألف باء المادية الجدلية ، ص 46. [↑](#footnote-ref-7)
7. - فاسيلي بودوستنيك وأوفشي ياخوت ، ألف باء المادية الجدلية ، ص54. [↑](#footnote-ref-8)
8. - فاسيلي بودوستنيك وأوفشي ياخوت ، ألف باء المادية الجدلية، ص61. [↑](#footnote-ref-9)
9. - فاسيلي بودوستنيك وأوفشي ياخوت ، ألف باء المادية الجدلية ، ص66. [↑](#footnote-ref-10)
10. فاسيلي بودوستنيك وأوفشي ياخوت ، ألف باء المادية الجدلية ، ص18. [↑](#footnote-ref-11)
11. - فاسيلي بودوستنيك وأوفشي ياخوت ، ألف باء المادية الجدلية ، ص13. [↑](#footnote-ref-12)
12. - جورج بوليتزر وجي بيس، موريس كافين. أصول الفلسفة الماركسية ، ص155. [↑](#footnote-ref-13)